

المرأة القروية والتنمية البشرية مقاربة شرعية ورؤية مستقبلية.

د. ناهية أفجوج
عضو المجلس العلمي المحلي
لإقليم مولاي يعقوب.

تقديم:

لقد خلق الله عز وجل الإنسان وجعله مستخلفا في الأرض مكلفا بإعمارها وإصلاحها، وأمده بالمسخرات ووهبه من النعم والخيرات وحثه على الضرب في الأرض واستباق المنافع وتيسير سبل العيش والابتغاء من فضله و أمره بحسن استغلال الموارد الأساسية سعيا للبناء وال عمران وتنمية الإنسان تنمية شاملة ومتكاملة ومتوازنة، تركز على إشباع كافة الاحتياجات البشرية من مآكل ومشرب وصحة وتعليم وممارسة الشعائر التعبدية والأخلاقية، وتغطي كل جوانب الحياة الدينية والأخلاقية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية...وتوازن بين المادة والروح، كما تستهدف الإنسان كيفما كان وحيثما وجد مراعية الظروف والخصوصيات والحاجيات في المنطلق والأساس.

وإن تحرير المقال في موضوع المرأة القروية والتنمية البشرية في سياق المبادرة الوطنية، وبسط الكلام فيه يأتي لبيان مدى إعمال هذه المفاهيم الأساسية للتنمية في الفكر الإسلامي، وذلك من خلال محورين اثنين يتعلق الأول بتقديم مقاربة شرعية في المسألة والثاني في محاولة طرح رؤية مستقبلية انطلاقا من واقع الحال واعتبارا للمأل.

المحور الأول: المرأة القروية والتنمية البشرية: مقاربة شرعية:

إن تقديم مقاربة شرعية في الموضوع اقتضى تكييفا ومقارنة انطلاقا من معرفة الأساس الشرعي في المشاركة في العملية التنموية من جهة، والحق في الوصول إلى الموارد التنموية والاستفادة من مشاريع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية من جهة أخرى، ثم بيان الضوابط الشرعية الحاكمة للانخراط في البناء المجتمعي.

❖ أولا: الانساق الشرعية في المشاركة في العملية التنموية:

لقد جعل الله عز وجل لكل من الرجل والمرأة دورا متكاملًا في عملية البناء والتنمية، قال تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

﴿١﴾ وقال ﴿١﴾: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرِيكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِيهِمْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْبَوَارُ الْعَظِيمُ ﴿٢﴾...، كما أقام التمييز على أساس العمل الصالح، وأعطى للمرأة الحق في العمل والبناء في إطار وحدة متكاملة يتم فيها التعامل مع الرجل بصورة شاملة وفق أحكام وضوابط وقواعد تتمثل أساساً في تقسيم العمل، وتحديد الاختصاص، ومراعاة اختلاف القدرات وتباين الكفاءات.

ومن جهة أخرى جعل الله سبحانه وتعالى الرجل والمرأة على حد سواء في إعمال المؤهلات والاستفادة من الخيرات والتعامل مع المسخرات، وفي الحفاظ على الموارد الأساسية المساهمة في العمران والنماء، فجاء الخطاب القرآني في ذلك كله بصيغة العموم شاملاً للذكر والأنثى، والبيان كالاتي:

1- في العلم والتعلم؛ قال تعالى: ﴿١﴾: فُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣﴾، وقال تعالى: ﴿٢﴾: يَرْجِعَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ ءَاتَوُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٤﴾، وقال رسول الله ﷺ: " طلب العلم فريضة على كل مسلم" ⁵.

2- في العمل، أمر الله ﷻ بالعمل وسوى بين الذكر والأنثى، وورد الخطاب القرآني بصيغة العموم في قوله تعالى: ﴿١﴾: وَفَلِي إِعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾، ثم شرط لذلك الصلاح والإخلاص والإتقان فقال تعالى: ﴿٢﴾: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾، كما جاءت السنة النبوية مؤكدة على الإحسان والإخلاص في العمل؛ فقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته" ⁸.

1 - سورة التوبة، الآية 71

2 - سورة الحديد، الآية 12 .

3 - سورة الزمر، جزء من الآية 9

4 - سورة المجادلة، جزء من الآية 11

5 - أخرج ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: 220

6 - سورة التوبة، جزء من الآية 105

7 - سورة النحل، الآية 97

8 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب: الأمر بالإحسان والذبح والقتل وتحديد

3- في الاستفادة من الخيرات والمسخرات؛ كما في قوله الله ﷻ: ﴿وَإِذِ اسْتَسْفَىٰ مَوْسَىٰ لِقَوْمِهِمْ بِقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ إِثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁹، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾¹⁰.

4- وفي الحفاظ على الموارد الطبيعية الأساسية المكونة للبيئة والضامنة للعمران البشري من جميع الثروات المائية والنباتية والحيوانية؛ حيث ورد الأمر في ذلك للإنسان وللمسلم عموماً دون تمييز، كما جاء الربط بين الأرض كمورد طبيعي أساسي من الموارد الاقتصادية وبين مطلق الإنسان كمورد بشري دون تمييز بين ذكر وأنثى أو جنس دون آخر، في الآيات القرآنية التي تحث على الإعمار؛ قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾¹¹، وقال ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّبِعُونَ﴾¹²... وهذا التسخير الإلهي يقتضي الاستفادة كما يستوجب المحافظة.

من هذا المنطلق وعملاً بهذه الثوابت الشرعية استطاعت المرأة في العهد النبوي أن تنخرط في البناء المجتمعي، وتشارك في جميع المجالات التنموية، من فلاحية وتجارة وصناعة وخدمات، ولم تكن المسؤولية الفطرية-الأسرية- ولا الظروف القائمة عائقاً لها في الانخراط في سوق المال والأعمال والبرهنة على الكفاءة المادية والمعنوية؛ حيث حرصت على العمل والإنتاج، ودعم الاقتصاد وتنشيط الحركة التنموية، وساهمت بمختلف السبل والآليات في تنمية الأسرة تنمية شاملة ومتكاملة ومتوازنة.

ومما يشهد لمشاركة المرأة القروية في المجال التنموي من القرآن الكريم؛ ما جاء في قصة موسى وبنتي شعيب عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ إِمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْفِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾¹³، مما يدل على اشتغال المرأة في المجال الرعوي وتربية الأغنام والقطيع مما هو

⁹ - سورة البقرة، الآية 60

¹⁰ - سورة طه، الآية 54

¹¹ - سورة هود، جزء من الآية 61

¹² - سورة الجاثية، الآية 13

¹³ - سورة القصص، الآية 23

موجه اليوم كمشاريع تنموية من خلال الأنشطة المدرة للدخل والمتمثلة أساسا في تربية الدواجن والأنعام التي تتناسب وطبيعة واهتمام المرأة القروية.

كما تطلعنا كتب السنة النبوية أن المرأة كانت سندا للرجل في حقول الزراعة ومجال الفلاحة؛ فهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق تقول: "كنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي وهي مني على ثلثي فرسخ..."¹⁴، كما أن جارية لكعب بن مالك كانت ترعى غنما بسلع فأصيبت شاة منها فأدركتها فذبحتها بحجر، فسئل النبي ﷺ، فقال: كلوها.¹⁵ ومن جهة أخرى استطاعت المرأة القروية الاندماج في الحياة الاقتصادية والانخراط في عمل المقاولات؛ فكانت صناع اليدين في الخرازة والخياطة والنساجة، وساهمت بعائد صنعتهما في التنمية الأسرية بمساعدة الزوج ماديا وتدير أمور البيت المالية؛ ولعل زوجة عبد الله بن مسعود أبرز مثال يذكر في هذا المجال؛ حيث إنها كانت امرأة صناعا وليس لعبد الله بن مسعود مال، فظلت تبيع من صنعتهما وتنفق عليه وعلى ولده من ثمنها أو ثمرها¹⁶، كما ساهمت المرأة القروية بعائد صنعتهما في التنمية الاجتماعية حيث إن زينب بنت جحش كانت امرأة يضرب بها المثل في الخرازة، فكانت تغزل الصوف وتعطيه سرايا النبي عليه الصلاة والسلام يخيطنون به ويستعينون به في مغازيهم¹⁷. كما اهتمت المرأة بأمر السوق وأحواله، فكانت تاجر ذات مال، فباعت واشترت، وشجعت على التجارة، وضاربت بالأموال، واستقرضت المال من أجل التجارة... فهذه هند بنت عتبة تستقرض- على عهد عمر بن الخطاب- أربعة آلاف من بيت المال وتخرج بها للتجارة¹⁸، وهذا مما يدل على أن المرأة يحق لها أن تقترض المال وأن تستفيد من القروض الحسنة الصفرية الفائدة من أجل تحسين مستوى المعيشة من جهة أو من أجل الانخراط في الأنشطة المدرة للدخل من جهة أخرى. ونحن حين نستحضر هذه النماذج وغيرها من النساء العاملات فإننا نكون بصدد الحديث عن قدوات من نساء مجتمع مكة، أو من مجتمع المدينة هو حديث عن نساء قرويات ساهمن في بناء المجتمع وتنميته بالرغم من صعوبة العيش وقلة الإمكانيات المادية والوسائل المتاحة.

14 - أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، ما كان النبي يعطي للمؤلفة قلوبهم.

15 - أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب: ذبيحة المرأة والأمة.

16 - الحديث أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب، ومسلم، كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة

والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد، وتمامه: "...فسألت رسول الله فقال: لك في ذلك أجر القرابة، وأجر الصدقة".

17 - الإصابة: 314 / 4.

18 - تاريخ الطبري، 576 / 2.

ولعل هذا ما يجعلنا نقول إن المرأة القروية أقرب ما تكون إلى تحقيق مفهوم العمران في الفكر الإسلامي؛ والذي هو إعمار وعماراة الأرض بالزراع والغرس والحرث واستصلاح الأرض وإحياء مواتها واستغلال سوادها وبياضها، والانتفاع بالنافع واستغلال الصالح، وتدبير الفضلات والنفايات، وتنمية المهارات اليدوية ثم تنشئة الأسرة تنشئة صالحة مع التمسك بالضوابط، والثبات على الفطرة والأصل.

كما أن حال وواقع المرأة القروية في تعاملها مع المشاريع التنموية وفي خروجها للعمل قد أكون أقرب إلى الالتزام بالضوابط الشرعية للعمل، والتي تعد ضرورية للانخراط في مسيرة التنمية ولتحقيق رسالة العمران؛ فلا تنمية إلا على أساس من القيم الدينية والأخلاقية.

❖ ثانياً: الحق في الوصول إلى الموارد الاقتصادية والاستفادة من المشاريع التنموية

إذا كان مفهوم التنمية في الفكر الاقتصادي هو: "عمل على تحقيق أقصى استغلال ممكن للموارد، وأقصى استفادة ممكنة من الموارد البشرية، حتى تتوافر المنتجات-سلعية وخدمية- وتوزيعها على جميع الأفراد في المجتمع جزءاً من تلك المنتجات..."¹⁹، فإن حق المرأة في الوصول إلى الموارد الطبيعية والاستفادة من مشاريع التنمية البشرية أمر كان عليه العمل في العهد النبوي؛ حيث استفادت من الموارد الاقتصادية التي ساعدتها على تحسين مستوى المعيشة، والتخلص من الفقر، بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام أذن للمرأة القروية في ذلك؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: "طلّقت خالتي فأرادت أن تجد نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: بلى فجدي نخلك فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلني معروفاً"²⁰.

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: "تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء، وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز وكان يخبز جارات لي من الأنصار وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي وهي مني على ثلثي فرسخ فجئت يوماً والنوى على رأسي..."²¹.....

وإن إمداد المرأة القروية بالمشاريع التنموية، وفتح مراكز للتربية والتكوين في المناطق النائية وتخصيص مشاريع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية لتعليم مختلف الحرف والصنائع والعمالات الشرعية والمهارات اليدوية، وكذا إمدادها بالأنشطة المدرة للدخل مثل تربية الدواجن

19 - الإسلام والتنمية الاقتصادية، شوقي دنيا، طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة 1979، ص: 183

20 - أخرجه مسلم في سننه، كتاب الطلاق، باب: خروج المعتدة البائن والمتوفى عنها زوجها في النهار، رقم 2727.

21 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب: الغيرة، رقم 2918

والأنعام...لهي التفاتة تبرز مدى العناية بمبدأ التكافل الاجتماعي والاهتمام بالمناطق البعيدة عن العمران، وهي بادرة إنسانية أولاً وقبل كل شيء، ومبادرة شرطها أن تكون محاطة بسياسات من الأخلاق وألا يثير تعلم تلك الصنعة أو الانخراط في ذلك العمل إشكالات ما في الحال والمآل، ولا يحدث أثراً سلبياً على الفرد والأسرة والمجتمع.

❖ ثالثاً: ضوابط شرعية للانخراط في المسيرة التنموية:

إن تنمية المرأة القروية تنمية إنسانية مستدامة استدامة تضمن احترام مبادئ الدين وقواعد الشرع لا يمكن أن تتحقق إلا على أساس احترام منظومة القيم الدينية والأخلاقية، وانطلاقاً من تنمية الوعي الديني؛ الذي يعد أساس كل تنمية منشودة وكل إصلاح مأمول؛ ﴿ وَالَّذِينَ يَمَسُّكُونَ بِالْكَتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾²²، كما أن ضمان الاستدامة يتطلب تضامراً الجهود واتحادها، وتعاون الأفراد وتأزرهم كي يأتي العمل مستوياً على الشاكلة المبتغاة ووفق أنموذج تنموي فاعل وفعال؛ ﴿ كَزَّرِعِ أَخْرَجَ شَطْئَهُ، فَكَارَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْفِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾²³، وتأسيساً على ذلك تطلب الأمر تكوين الشخصية المسلمة المتزنة قبل إحداث المشاريع التنموية، وإصلاح النفوس البشرية قبل استصلاح الأراضي الزراعية، وزرع القيم الأخلاقية قبل غرس الأشجار المثمرة، وإحياء الذوات قبل إحياء الأرض الموات... من أجل هذا كان لابد لانخراط المرأة في البناء المجتمعي ومشاركتها لأخيمها الرجل مراعاة جملة أمور مهمة تتمثل أساساً الآتي:

- أن يكون العمل مشروعاً ومراعاة للقدرة والفترة وطبيعة المرأة الفسيولوجية، وأن تكون المشاريع التنموية المبرمجة موافقة لحال واقع المرأة القروية ومراعية للمؤثرات الطبيعية المحيطة بها.

- استعمال الحق وفق ما شرعه الله من أحكام تكفل للمرأة حقوقها وإنسانيتها ودينها.

- إعمال فقه الأولويات من حيث إقامة الواجب وتنظيم المباح في اعتبار علاقة الزوجية والبنوة؛ لأننا نحتاج لأسرة قروية مؤهلة لإعداد رجال الغد.

وفي ظل هذه المنظومة القيمية والأخلاقية شاركت المرأة في العملية التنموية مشاركة فعالة عبر التاريخ الإسلامي بالفلاحة والتجارة والصناعة والخدمات...وقبل ذلك كله بإعداد الجيل الصالح.

²² - سورة الأعراف، الآية 170

²³ - سورة الفتح، آية 29

وفي هذا الاتجاه سار الإعلان الإسلامي لـ"دور المرأة في تنمية المجتمع المسلم" والذي كان من بين بنوده الآتي:

- إن من أهداف الإسلام بناء مجتمع يكون فيه لكل من الرجل والمرأة دور متكامل في عملية البناء والتنمية، وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة على أساس ينسجم مع شخصيتها، وقدراتها، وكفاياتها، وتطلعاتها، ودورها الرئيس في الحياة. وفي التصور الإسلامي يشكل المجتمع وحدة متكاملة يتم فيها التعامل مع الرجل والمرأة بصورة شاملة، ويؤكد القرآن الكريم والسنة النبوية على وحدة الأمة الإسلامية بعناصرها الحيوية، فلكل من المرأة والرجل شخصيته، ومكانته في المجتمع المسلم.

- الأسرة المبنية على الزواج الشرعي حجر الزاوية في البناء الاجتماعي السليم، ولذا فالإسلام يرفض أية صورة مزعومة أخرى للأسرة، وأية علاقة بديلة خارج هذا الإطار الشرعي. وللمرأة بمقتضى أمومتها وخصائصها الأخرى الدور الأساس في استقرار ورفاه هذا البناء العائلي.

- إن الأمومة هي إحدى وظائف المرأة الطبيعية في حياتها، ولن تستطيع أداء هذه الرسالة النبيلة على أحسن وجه وتكوين الأجيال القادمة، إلا إذا حصلت على جميع حقوقها الإسلامية لتقوم بمهمتها في مجالات الحياة الخاصة بها.

- المرأة والرجل متساويان في الكرامة الإنسانية، كما أن للمرأة من الحقوق وعليها من الواجبات ما يلائم فطرتها وقدراتها وتكوينها، وبينما يتمتع كل من الرجل والمرأة بصفات طبيعية متفاوتة، فهما متكاملان في المسؤوليات المنوطة بكل منهما في الشريعة الإسلامية.....

- إن التنمية الشاملة المتواصلة لا يمكن تحقيقها إلا على أساس من القيم الدينية والأخلاقية، وهذا يقتضي رفض محاولات فرض مفاهيم ثقافية واجتماعية دخيلة، وإدانة الهجمات المتواصلة من بعض الجهات ضد المفاهيم والأحكام الإسلامية المتعلقة بالمرأة...²⁴.

✚ المحور الثاني: المرأة القروية والتنمية البشرية: رؤية مستقبلية:

❖ أولاً: توطئة

إذا كانت المرأة القروية في العهود الأخيرة قد نالت حظها من المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، واستفادت من مختلف الأنشطة التنموية سواء في مجال محو الأمية الأبجدية والدينية، أو الاستفادة من المشاريع المدرة للدخل، خصوصاً بعد عدد من التوجهات الملكية السامية الداعية إلى مزيد من العناية بالمناطق القروية، وبالمرأة والفتاة والشباب القروي، "إلا أننا بقدر ما نولي

²⁴ - الإعلان أصدره مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي بتاريخ (1/7/1421هـ - 29/9/2000م)

اهتمامنا للجوانب الاقتصادية لتنمية مناهضتنا القروية، فإننا نضم تكوين الإنسان القروي في صدارة انشغالنا، فاستدراك العجز الذي يعانيه عالمنا القروي في شتى الميادين مرهون بمدى مواهبنا في هذا الجزء من الترايب الوطني بالمعارف والمهارات التي تحفلهم خاصة الشباب والمرأة منهم قادرين على إنجاز التغيير الذي تقتضيه التنمية القروية²⁵، فإن إطلاق مشاريع التنمية ذات الصبغة المادية على وجه الخصوص أمر يستوجب مزيداً من التعبئة والتهيئة والتنمية الروحية سداً لكل ذريعة وحفظاً من كل ضرر وتحصناً من أي آفة، ضماناً لاستمرار هذه الخطط وسيرها في سياقها الإيجابي حالاً ومآلاً مع ضرورة تحديد الرؤى وإعمال بعد النظر، ودراسة النتائج والآثار، ولا بد من حكمة جيدة وسياسة حكيمة أو كما قال ابن خلدون في سياق حديثه عن العمران البشري "... لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه، وحكمه فيهم: تارة يكون مستنداً إلى شرع منزلي من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم، فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة، ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط".²⁶

وهذا ما نجده مضمناً كذلك في عدد من الخطب والرسائل الملكية السامية؛ منها ما جاء في الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى المشاركات في الملتقى الوطني للعالمات والواعظات والمرشدات المؤطرات للشأن الديني حيث قال: "...وكما لا يخفى عليكم فإن أي تنمية للإنسان لا تأخذ بعين الاعتبار بعديه الروحي والجسدي تكل ناقصة وبدون جذور، وبالتالي لن يتحقق معها التوازن المبتغى والإصلاح المنشود"²⁷...

ونحن نتكلم عن التنمية البشرية والمرأة القروية- سواء كانت مستفيدة من المبادرة أو مبادرة في المشروع التنموي- فلا بد من رؤى مستقبلية ومن فهم المتغيرات ومراعاة الأولويات واحترام الخصوصيات، حتى تحقق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية الأهداف الأساسية.

²⁵ - من الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى المشاركين في الدورة الثامنة للمجلس الوطني للشباب والمستقبل، الرباط، الثلاثاء

18 يناير 2000م

²⁶ - مقدمة ابن خلدون: ص: 380

²⁷ - من الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين في اللقاء الأول للعالمات والواعظات والمرشدات المؤطرات للشأن الديني،

الرباط 24 رجب 1430هـ/17 يوليوز 2009م.

❖ ثانياً: مقومات نجاح المبادرة بالقرى النائبة.

لا شك أن تحقيق التنمية البشرية بجميع أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والبيئية... لا يتم إلا بالتنمية الدينية وتكوين الإنسان روحاً وجسداً، ذلكم لأن تنمية الوعي الديني أصل كل تنمية منشودة، وأن التربية الدينية القادرة على صياغة الفرد صياغة إسلامية تعد أساس تنفيذ واستمرار خطط التنمية، ثم تطور المجتمع وتميزه حضارياً وفكرياً واقتصادياً وإعلامياً...

وتأسيساً على هذا فإن الانخراط في المبادرة الوطنية للتنمية البشرية تطلب أنماطاً من التدخل من أجل العمل على تفعيلها التفعيل الأنسب والموافق للأهداف المتوخاة، وفي إطار الثوابت الدينية، ووجب الأخذ بعين الاعتبار أولويات أساسية في مجال التوعية والإرشاد الديني منها:

➤ الربط بين الاعتقاد والاقتصاد

لا يختلف اثنان في أثر العقيدة في نجاح الأعمال وفي حركية الإنسان ونشاطه؛ فلكي ينشط الإنسان يحتاج دوماً إلى عقيدة تحركه، كما أن صفاء العقيدة ووضوحها هو أساس صفاء الأفكار واستقامتها، وصفاء الأفكار سبيل توجيه السلوك والأخلاق التوجيه الصحيح الضامن للمعرفة الحقيقية. ولا شك أن عقيدة الإسلام هي المحرك الأساس والفعال لبناء الاقتصاد وتحقيق المشاريع التنموية؛ لأن روح الإسلام ومبادئه فيه من التوجيهات والبيانات والأوامر ما يشجع على العمل الصالح والجزاء على ذلك، فالله تعالى يقول: ﴿وَقُلْ إِغْمَلُوا بِسَيْرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلِيمٍ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ بَيْنِيكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾²⁸.

وتأسيساً على هذا فلا شك أن المرأة القروية في حاجة لمزيد من ترسيخ العقيدة والتوجيهات الإيمانية الخاصة بالعمل وطلب الرزق وذلك من خلال الربط بين العمل والإيمان وبين الاعتقاد والاقتصاد، وبيان التلازم بين القيم الأخلاقية وتحقيق النماء والرخاء والرزق المستطاب انطلاقاً من الآيات القرآنية الواردة في ذلك من قبيل:

- قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَيْءِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَئِ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾²⁹

²⁸ - سورة التوبة، الآية 105

²⁹ - سورة الأعراف، الآية 96

- وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ - اِمْنَةً مُّطْمَئِنِّةً يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَّافَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾³⁰
- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَفَلْتُ لِاسْتَعْجِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهْرًا ﴾³¹.

➤ فقه المال والاعمال ضمن أولويات التأطير:

قد لا ننكر أن المرأة القروية قد نالت -إلى حد ما في- نصيبا من العلم والمعرفة في مجال العقيدة والسلوك وفقه العبادات على الخصوص، لكن وفي سياق مشروع التنمية البشرية والانفتاح على مجال المال والأعمال تطلب الأمر إعادة النظر في مواد التأطير وعناصر التدخل، بتعليم الضروري من الدين في فقه المعاملات وإشاعة ثقافة فقه الأموال والأعمال. فالمرأة القروية تحتاج موازاة مع انخراطها في المبادرة الوطنية معرفة أحكام البيع والشراء، والإحاطة علما بفقهاء الحلال والحرام، والتمييز بين أصناف القروض المطروحة، وأحكام وضوابط الجلوس في السوق، والغش والتدليس ووجه الصفقة والادخار والاكتناز... ثم من أوجب الواجبات تعليم المرأة القروية المنخرطة أو المقبلة على الانخراط في المبادرة الوطنية للتنمية البشرية فقه الأموال وفقه الأعمال من زراعة وفلاحة وصناعة وإنتاج، فلكل عمل وحرفة فقه حاكم، وأصل ضابط، وحد لا ينبغي تجاوزه، ومعرفة ذلك أمر لا بد منه كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا يجلس في سوقنا من لم يتفقه في الدين".

➤ محاذير لا بد منها.

إن كان مفهوم التنمية في الفكر الإسلامي يرتكز على القضاء على كل الأسباب المؤدية إلى حدوث مشاكل معينة اقتصادية أو اجتماعية، ويسعى إلى السمو بأرواح الأفراد وإعلاء الروابط الإنسانية وحل الأزمات المالية، فإن القول بتحقيق تنمية بشرية مستدامة أمر يتطلب أخذ الحذر من كل ما من شأنه أن ينافي مفهوم التنمية وأهدافها أو يشكل عراقيل لها، خصوصا حين يتعلق الأمر بالتنمية ذات البعد المادي؛ شأن المشاريع المدرة للدخل التي استفادت منها أو انخرطت فيها المرأة القروية مع انطلاق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، لذلك لا بد من تبيين وتنبيه إلى أمور منها:

أ. أن كيفية تدبير الأموال المكتسبة من المشاريع التنموية غالبا ما تثير مشاكل ونزاعات أسرية خطيرة، خصوصا وأن الأسرة القروية اعتادت نمطا من العيش، ولها مميزاتا من حيث

³⁰-سورة النحل، الآية 112

³¹-سورة نوح، الآيات 10-12

التكوين الاجتماعي، و من حيث نظام العمل المشترك في حقول الزراعة والخاضع لسلطة رب العائلة.

ب. أن العائد أو الربح أو الفائض غالبا ما يكون مصيره الاكتناز؛ وهذا أمر مناف لمفهوم التنمية في الفكر الإسلامي، أو حسب قول ابن خلدون: "واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم، نمت وزكت، وصلحت بها العامة، وترتبت بها الولاية، وطاب بها الزمان واعتقد فيها العز والمنفعة. فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله. ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم، فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة لك، واستوجبت المزيد من الله تعالى" ³².

ج. أن الانغماس في العمل يصرف عن الهدف و يؤثر سلبا على الإقبال على مجالس العلم والمعرفة، فالأسر القروية غالبا ما يلهمها طلب لقمة العيش والانشغال بطلب المادة عن ذكر الله. وهذه جملة أمور في غاية الخطورة ينبغي على ذوي الألباب مراعاتها والتنبيه إليها، ولعل أمير المؤمنين حين أطلق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية كان على وعي بخطورة ذلك، حيث أكد على ضرورة إدماج الخطاب الديني في المشروع المجتمعي: "...فإننا ما زلنا نؤكد على ضرورة إدماج الخطاب الديني في صلب المشروع المجتمعي الذي نعمل جادين على إنجازه، لتحقيق التنمية البشرية المنشودة، ورفع تحدياتها، واستشراف المستقبل في ثقة وعزم والهممنا" ³³.

من أجل هذا وجب التنبيه والتحذير، وتطلب الوضع ضرورة الربط بين أهداف المبادرة الوطنية للتنمية البشرية وأصالة التشريع الإسلامي من خلال نشر المبادئ والقيم النبيلة في مجال المعاملات المالية خاصة، حيث إنه لا جدوى من تنمية بشرية تؤدي إلى مشاكل أسرية، ولا خير في مشروع تنموي يفقد المرأة مهمتها الفطرية، بل الصواب والمناسب أن تكون المرأة القروية اليوم في ظل المبادرة الوطنية للتنمية البشرية شأن الصحابية والتابعية التي كان لها الدور الإيجابي في تحقيق التنمية المتكاملة؛ أمثال زوجة عبد الله بن مسعود التي ساهمت بعائد صنعها في مساعدة الزوج ماديا وتدير أمور البيت المالية في وقت لم يكن لزوجها مال، فصنعت و باعت

32 - مقدمة ابن خلدون: ط بمراجعة سهيل زكار دار الفكر 1408هـ/1988م ص: 381-382

³³ - من نص الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى أعضاء المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بمناسبة انعقاد الدورة العادية الأولى للمجلس العلمي الأعلى لسنة 2009 م، الرباط: 03 جمادى الأولى 1430هـ/ 29 أبريل 2009م.

وأنفقت على زوجها وعلى ولده عائد صنعتها³⁴، وأمثال خولة بنت ثعلبة التي تحملت المسؤولية تجاه زوجها حيث ساهمت بمالها في كفارة الظهار حفاظا على أسرتها، وإنقاذا لبيت الزوجية من التفكك الأسري والعجز المالي³⁵.

❖ ثالثا: دور المؤطر الديني في سياق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية.

إذا كان انخراط العلماء في المبادرة الوطنية للتنمية البشرية والعمل بالمقاصد الكلية والأهداف العامة لبرنامج ميثاق العلماء والمتمثلة أساسا في الارتقاء بالخطاب الديني وتحسينه وتثبيته على مستوى الفكر والعقيدة والسلوك، قد أصبح يفرض نوعا من الجدية في التبليغ ويحقق تبعا لذلك الثمار المرجوة، فإن المؤطر الديني عموما تقع على عاتقه مسؤولية الاضطلاع أكثر بدور التبليغ والتوعية والإرشاد، انطلاقا من الاطلاع على واقع ساكنة العالم القروي، واعتمادا على المسجد كمنبر إعلامي يمكن من تحقيق المراد والنهوض بالتنمية من حيث تكوين وصياغة الفرد المسلم المتكامل والشخصية المتزنة؛ فالمسجد هو المؤسسة الإصلاحية؛ التي تهتم بإصلاح الحياة بكل جوانبها الفكرية والثقافية والاجتماعية والدعوية والإرشادية والإعلامية، والمنابر هي الوسيلة الإعلامية الأسبوعية المواكبة لحركة المجتمع ولهموم ومشاكل الناس، ومنها ينطلق الفكر التنموي المحقق للعمران البشري.

وإن الإمام والخطيب-باعتباره صلة وصل بين المؤسسة العلمية والمواطنين- والمؤطر الديني عموما مطالب بتفعيل الخطاب الديني في سياق المبادرة الوطنية وفي سبيل تحقيق أهدافها، وتهيئة المناخ البيئي والاجتماعي، بإعمال بعد النظر واستحضار واقع الناس، والجمع بين فقه الدين والانفتاح على قضايا العصر، والمعرفة بحال وأحوال الناس، والإحاطة علما بالأحداث والوقائع، من أجل الإسهام في التنمية والبناء المجتمعي إسهاما مميذا و متميزا روحيا وأخلاقيا واجتماعيا وفكريا واقتصاديا...وهو ما يتطلب الوعي الكامل بأن ثمة أصنافا من التربية تلازم أصنافا من التنمية؛ فالتنمية الروحية لا بد لها من تربية روحية، والتنمية الاجتماعية لا بد لها من تربية اجتماعية، والتنمية الثقافية لا بد لها من تربية ثقافية، والتنمية الاقتصادية لا بد لها من تربية اقتصادية...وأن تحقيق التنمية المتكاملة بأبعادها المختلفة يقتضي تربية متوازنة

³⁴ -الحديث أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب، ومسلم، كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة

على الأقربين والزوج والأولاد، وتماهه: "...فسألت رسول الله فقال: لك في ذلك أجر القرابة، وأجر الصدقة".

³⁵ -ينظر الحديث في سنن أبي داود، كتاب الطلاق، باب: الظهار رقم 1893، وفي مسند القبائل من مسند أحمد،

حديث خولة بنت ثعلبة.

ومتكاملة وشاملة، وأن المشاريع التنموية الحضارية تتطلب تدخلا مناسباً ومميزاً على مستوى مواد التأطير وآليات التبليغ وسبل التفعيل.

وإذا كان الكلام موجهاً للمؤطر-بصيغة المذكور في إطار الحديث عن تنمية المرأة القروية- على الرغم مما عرفه الشأن الديني من نجاح على مستوى انخراط المرأة العاملة والواعظة والمرشدة في تنمية الوعي الديني لدى المرأة عموماً، والمرأة القروية على وجه الخصوص اعتباراً لما تقوم به المؤطرات الدينيات من مجهودات وخدمات خاصة في باب إصلاح الحياة الأسرية وتنوير عقول الفتيات، وتعزيز حضور المؤسسة العلمية في البوادي، والجهود الرامية إلى استهداف نساء العالم القروي، حيث استطاعت المرأة القروية في القرى والمناطق النائية أن تستفيد من حقها في العلم والمعرفة وأن تبرهن عن قدرتها على الانخراط في مسيرة الإصلاح والتنمية، وبناء الإنسان الصالح، وتكوين الأسرة المتماسكة. إلا أن الأسرة-خصوصاً في العالم القروي- تحتاج لمزيد من التوعية على مستوى متوازي في الخطاب؛ خطاب الرجل كما خطاب المرأة خصوصاً في مجال العلاقات الأسرية، فالعالم المؤطر مطالب بتوجيه الخطاب تنبيهاً وإرشاداً وتذكيراً لفئة الذكور في سياق التعامل مع مكونات الأسرة والمجتمع، في مختلف جوانب الحياة الثقافية والأسرية والاقتصادية والاجتماعية.... وكلما اقتضى الأمر التدخل في بعض المناسبات الخاصة من قبيل الحث على طلب العلم وتشجيع التمدرس،.....

وتأسيساً على هذا فإن العلماء مطالبون أكثر من أي وقت مضى وفي سياق المبادرة الوطنية للمبادرة الوطنية للتنمية البشرية انتهاج نهج سياسة القرب، لأن المرأة والأسرة القروية عموماً في حاجة إلى انخراط فعلي انطلاقاً من التأطير وفق فقه الأولويات، والتدخل باعتبار الحاجيات، والعمل على تسخير كل الإمكانيات، ونهج كل السكك المتاحة من أجل إدماج كلي للإنسان البدوي في دائرة العمران البشري.

ولعل العمل على إيجاد وتكوين أطر محلية تبقى مسألة على درجة عالية من الأهمية في تحقيق التنمية القروية، في مجال تنمية الوعي الديني الذي هو أساس كل تنمية، وفي سائر مجالات التنمية المطلوبة في العالم القروي، فعلى الرغم من كثرة الراغبين في تقديم خدمات جلى فإنها قد تظل مبادرات موسمية أو مرحلية كثيراً ما تفتقد إلى قواعد الاتصال والترابط والاستمرارية، غالباً ما تحول دون تحقيق التنمية المطلوبة، ولعل تحقق التكامل الشمول والتوازن والقرب في التعامل مع التنمية من هذه الزاوية هو السبيل للنهوض بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمرأة والأسرة في العالم القروي، وللمساهمة في تحقيق رسالة الاستخلاف والعمران في الأرض كما ارتضاها لنا رب العالمين.

وإن كان ميثاق العلماء هو خطوة أولى في هذا الصدد، و"واجهة أساسية من واجهات مشروع التنمية الشامل الذي يقوده أمير المؤمنين حفظه الله، تعنى بتنمية الوعي والثقافة الدينية، وتوفير الأمن الروحي والاستقرار النفسي الممكن من إنجاز مشاريع التعمير المختلفة"³⁶، فإن مزيداً من الجهود يمكن أن تبذل، وحشداً من الهمم ينبغي أن يستنهض، وأنماطاً من التدخل يلزم أن تفعل، وعدداً من السنن يجب أن تحيي...

كما أن ثمة مواثيق أخرى من الضروري أن تعلن أو أن تفعل انطلاقاً من ميثاق العلماء، أو استناداً إليه أو تميماً له، وعلى رأسها ميثاق الأسرة.

³⁶ - من دليل العالم المؤطر في ميثاق العلماء، منشورات المجلس العلمي الأعلى، 1431هـ، 2010م، ص: 62.